

قرأ العقاد البلاغة فرأى الباحثين يتعمقون ، ولكنهم فى تعمقهم يرحون إليه أنهم يشرعون لأشياء لا خطر لها ولا مبالاة بها .

كانت البلاغة العربية صرحا كبيرا ينتهى الى خلاصة مزعجة ، لانحاسب الشاعر على كذب ، ولا تطالبه بطائل فى معانيه ، ولا تعول على شيء كثير مما يقول ، وعلى هذا النحو لم تكن البلاغة ولا شروح الشعر تخدم الحساسية الجديدة التى يريد الأستاذ العقاد إرساءها .

وبعبارة أخرى تجاهل الباحثون فى اللغة فكرة الحقائق ، ويحثوا شئون اللغة التى تعين على تجاوز الحدود ، والخلط بين الخطأ والصواب ، وتجاهل البلغاء فى نظر الأستاذ العقاد مبدأ الطباع السليمة أو الوجه المستقيم ، هذه هى الطعنات التى ظل العقاد يوجهها الى الذين يقفون فى وجه الحساسية الجديدة أو حساسية النهضة وإرادة الحياة .

وقد انصرفت البلاغة الى مبدأ التحسين الذى يستغنى عن فكرة الطبع السليم أو الوجه المستقيم ، وانصرفت من خلال هذا التحسين الى المغالطة الوهمية ، وأوحى اليه الدارسون المتقدمون للغة بعد كل العناء أن الصرح الذى يقام لا يخدم سوى عواطف البطالة والفراغ ، عانى المتقدمون فى إقامة فلسفة ضخمة تثير الإشفاق والإعجاب ، ولا غرابة أن اتهمت البلاغة فى العصر القديم ذاته واتهمت بعض شروح الشعر بأنها لاتخدم الجد والصدق والآمال والفضائل ، وسخرت الأبحاث - على خلاف ذلك - لقبول مبدأ التشويه أو التزييف ، لقد رأى العقاد أن الفصل بين التشويه أو التزييف من جانب ، والصدق والجد من جانب آخر ، واضح لا يقبل الريب ، فإذا خاصمته فى هذا فقد فتحت على نفسك وعلى العقاد أبوابا كثيرة ، ولكن المشغول بالهضة ، المنتمى الى المستقبل والتطلع ، لا يرتاب فى هذا التمييز .

(٢)

والحقيقة أن العقاد يقسم الأدب العربى قسمين كبيرين ، منذ أواسط الدولة العباسية صار الأدب هدية تحمل إلى الملوك والأمراء لإرضائهم ومناذمتهم ، وكان أول ما ظهر من عيوب المبالغة والشطط ، لأن كثرة الممدوحين والمادحين تدعو الى التسابق فى